مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

أدب/ثقافة الأقليات الأفريقية: الصوت المضطهد ورهانات الكينون

African minor culture/literature: The oppressed voice and The bets of identities

الطالب رابح مناجلي
rabeh24menadjeli@gmail.com
المشرف أ.د مليكة بن بوزة
Bmalika13@yahoo.com
جامعة: أبو القاسم سعد الله – الجزائر 02

تاريخ الإرسال: 2020/01/14 **تاريخ القبول:** 2020/11/16

الملخّـــص:

يعدّ "التمثيل" ظاهرة، أسّست لنفسها عن طريق ركيزة المتخيّل وسعت لبناء نفسها غالبا غيابا لا حضورا، ظاهرة ساهمت في خلق ثنائية الأنا والآخر، أين كان الآخر ملوّثا، غير أصلاني وحاملا لكلّ ما هو سلبي، فخُلق بذلك "مركز" و"هامش" ساهم في تقسيم البشر والمجتمعات إلى دونيّ وفوقيّ، كان الاستعمار ومنطلقاته وروافده سببا مباشرا فيه.

إن ّولوج الرجل الأبيض قد استثار المقاومة التي تفجرت في العالم المضطهد المستعمَر فتوّجت بالحركة العظيمة لفكفكة الاستعمار عبر تراب وتخوم العالم الثالث والتي رافقها – في أماكن متباينة كالهند والجزائر وأندونيسيا...–قدر عظيم من المقاومة الثقافية المتمثلة في استخدام المستعمَرين للغة المستعمِر ولإنتاجهم أدبا مغايرا بها، في محاولة لخلق صيّغ جديدة تنأى عن التموقع ضمن الثنائيات الضديّة التي أفرزها رحم

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

"المركز"، لكن بعد كل مقاومة" وعندما ينتهي الكفاح، خصوصا إذا نتج عنه نصر، تفقد الهويّات قوّتها وتماسكها"، خاصة أنه لا يكمن تلافي ثقل اللّغة، كما لا يمكن تلافي أن الهامش يستوعب تأثيرات ثقافيّة أهم، ومن هنا يمكننا أن نطرح تساؤلا: هل سيعاني الأدب الأفريقي من سلبيات الذاتية للآخر/الغربي تجاه إبداعه الأدبي/الثقافي كما كان الشأن في المشرق العربي؟ وهل محاولة رسم مفهوم للأدب الأفريقي هي في حقيقتها تجليات لأنساق وأفكار مسبقة؟ وهل تمركز أدب الأقليات ضمن خارطة الأدب أعاد تعريف المركز والهامش؟.

هذا ما تروم هذه المقاربة الإجابة عنه انطلاقا من نظرية ثقافية لما بعد الكولونيالية، في محاولة لرصد الظواهر الثقافية المستجدة على الأدب، بهدف الإلمام بإشكاليات جديدة في التخييل والمغامرة، من منظور مقارنة الدراسات الثقافية، كنظرة نحو الشمولي والكلي، وفي إعادة الاعتبار إلى الظاهرة/الحادث على ضوء تراكمات مابعد الكولونيالية للآداب والهويات الجديدة. تلك التي أخذت تبحث بها عن مكان تحت شمس المقارنة.

الكلمات المفتاحيّة: الكولونيالية، أدب الأقليّات، الدراسات الثقافيّة، الأنا والآخر، المركز والهامش.

Abstract:

"Representation" is a phenomenon, that was established through the basis of the conceived and hence sought to build itself mostly in absence rather than presence. Indeed, it is a phenomenon that has contributed to the creation of both: ego and the other, where the latter was contaminated, unoriginal and pejorative. The creation of a "center" and a "margin" that contributed to the division of human beings and societies into a superior and an inferior, was directly caused by colonialism,

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

its aspirations and its tributaries. The White Man's obsession has provoked resistance that erupted in the oppressed and colonized world, culminating in the great movement of the decolonization struggle of the Third World, which accompanied it in different places like India, Algeria and Indonesia. In an attempt to create new formulas that avoid being located within the antidons that the "center" womb produced, but after every resistance" and when the struggle ends, especially if it results in victory, identities lose their strength and cohesion, especially as it does not lie in avoiding the weight of language. It is also not possible to avoid the fact that the margin absorbs more important cultural influences, we can therefore wonder whether African literature will suffer from the subjective disadvantages of the other/the West toward its literary/cultural creativity as in the Arab Mashreq? Or Is the attempt to draw up a concept of African literature really a manifestation of previous ideas and legacies? In other words; Is minority literature centered within the literature map redefined the center and margin ? This culturally post-colonial approach fundamentally attempts to observe new cultural phenomena of literature, with the aim of understanding new problems of both: imagination and adventure, from a comparative cultural studies perspective as well. Moreover, it seeks at looking at the totalitarian and the whole, endeavoring to reconsider the phenomenon/incident in light of the accumulation of post-colonialism for new literature and identities.

Keywords: Colonialism, minority literature, cultural studies, ego and the other, Center and margin.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

1- المقدمـــة: أفريقيا إبّان الاستعمار:

عاشت القارة الأفريقية منذ القرن الخامس عشر مشاكلا وحروبا عديدة، عندما فكّر البرتغاليون في الوصول إلى جزر الهند الشرقية، عن طريق رأس الرجاء الصالح تحت غطاء التبشير المسيحي، الهادف إلى إيقاف المد الإسلامي المتدفق إلى أفريقيا، دارت حروب دامية وسياسات عدوانية قرابة قرن على طول شواطئ القارة، أدّت إلى إغراق سفن الحجيج في عرض البحر لفرض الهيمنة العسكرية.

و لم تتوقف هذه الحروب عند هذا الحد فحسب؛ فقد شهدت أفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر حروبا استترافية، من قبل القوى الأوربية الصاعدة – فرنسا وإنجلترا – والتي زحفت هي الأخرى إلى القارة الأفريقية، وشطرتها إلى مجموعات استعمارية مارست فيها سياستها الوحشية، من صيد للرقيق، وترحيلهم عبر المحيط إلى أوروبا وأمريكا، وبيعهم في سوق النخاسة، كما دأب المستعمر على دسّ المدارس الغربية في أحشاء القارة في نهاية القرن العشرين، وفرض لغته بهدف القضاء على اللغات واللهجات المحلية، لطمس معالم شخصية المستعمَر، وتفكيك وإذابة عناصر ورموز كيانه الهوياتي، وجلد مقومات الذات الروحية الجماعية الأصلية، كالدين والأعراف والعادات والتقاليد. و لم تقتصر سياسات الاستعمار على تقنين جائر مفروض على حاضر مستعمراته فحسب بل يتجاوز هذا التقنين المسيّس اللحظة الراهنة، ويمتد إلى فرض سيطرته على مستقبل المستعمرات، بالعمل على إحداث اتصال غير محمودة عواقبه بين هذه المستعمرات وبين السلطة الاستعمارية، فتغدو البلدان المستعمرة تابعة للاستعمار وإن رحل عنها؛ ذلك أن الأقدام السوداء في حقيقة الأمر لم تغادر بمجرد استقلال المستعمرات؛ وإنما هي قابعة لاشعوريا في أوساط مستعمراتها السابقة، عبر آليات متجذرة كرّستها وعملت على ترسيخها بإحكام. كما يعمل

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

الاستعمار على طمس ماضي البلدان المستعمرة، بإحداث قطيعة كلية مع تراثها؛ فقد استهدفت حروب الأوروبيين في أفريقيا تغيير الخارطة الدينية، والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من العبيد والأيدي العاملة، وعلى الأراضي والموارد الاقتصادية الثمينة، لحرمان إنسان هذه القارة من ثرواته، كما اتجهت إلى تغيير الخارطة الثقافية، وتشويه الثقافة المحلية، وتكميم الأفواه، وبخست الإنسان حتى حقه في حرية التعبير، فخنقت صوته ومنعته من أن يعلو ويتعالى ويعبر عن ذاته/ذواته، فكانت أفكاره موءودة مقهورة من أن تطفو وتحلق في سماء يمثل من خلالها ثقافته، ومعتقداته، وموروثاته ليصنع استمراريته لخَلفِه والأجيال اللاحقة لهذا البلد المستعمر.

2– الأدب الأفريقي بعيون غربية:

ويُمثل "**جوزيف كونراد**" وجهة النظر الغربية عن العالم الثالث، فإن كل ما يستطيع أن يراه هو عالم خاضع كليا للغرب الأطلسي، عالم لا تكون فيه أي معارضة للغرب؛ فقد أبرزت كتاباته شخصية تجذرت فيها النظرة المركزية الغربية الواهية إزاء كل ما هو غير غربي، حتى أعمته عن رؤية تواريخ وتطلعات وثقافات أخرى، يقول: "نحن الغربيون سنقرر من هو المواطن الأصلاني الجيد، ومن هو السّيء، لأن الأصلانيين جميعهم لا يملكون وجودا كافيا إلا بفضل إعترافنا بهم، فنحن خلقناهم وعلمناهم أن ينطقوا ويفكروا وحين يتمردون فإنهم ببساطة يؤكدون سلامة رأينا بأنهم أطفال أغبياءً استغفلهم بعض أسيادهم الغربيين..."[1]. وكان هذا تحت شعار إيمانهم بمبدأ النقاء النازي "الوحدانية"؛ إذ ترى المجتمعات الغربية بأنّ الإنسان غير الغربي دخيل ينبغي محاربته واقتلاع جذوره وتراه عنصرا دخيلا ملوثا لصفو النقاء الأوروبي، وعليه وجب إقصاؤه

[1]– إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبوديب، دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 2004، الصفحة: 63.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

واقتلاع جذوره والتخلص من وجوده، فكان من الطبيعي أن يتحرك الإنسان المقهور في البقاع المستعمرة قاطبة لإنقاذ كينونته والذود عنها، فكان أن دافعوا عن "**الهجنة**"(**hybridity**) بوصفها استراتيجية مشروعة تحميهم، وتحتوي أطرهم الفكرية والأنطولوجية، وتعني الهجنة ابتكار أشكال واستراتيجيات تثاقفية جديدة في ظل الاحتكاك المفروض بالاستعمار، حيث يحصل بين المستعمر والمستعمر نوع من التجاذب يطلق عليه هومي بابا مصطلح "**الفضاء الثالث للتعبير**"، هذا الفضاء يقبع بين البينين، ولكنّ هذا لا يحدث إلا على حساب الأصلاني الصامت الذي يقع موقع الثابت، الذي لا كلمة له يمثّله الغربي نيابة عنه .

إنّ الإمبريالية هي التي تعمق كل هذه الانفصامات والحواجز، والسرديات هي التي تعكس التنافرات واحتدام النزاعات بين القوميات والثقافات، وتعمق الهوة بين الغربي والشرقي والأبيض والأسود، وهي تقسيمات عنصرية لا أساس لها من الصحة فأصل الإنسان هو كونه إنسانا وفقط، إلى الإنسانية ينتمي، وفيها يحيا ويعيش، حتى يضمحل ويتلاشى، بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى؛ التي لم توضع إلا لاعتبارات سياسية محضة، يقول "**إدوارد سعيد**": "لقد عززت الإمبريالية خليط الثقافات والهويات على مستوى كوني، غير أن أسوأ هباتها وأكثرها أنها حملت الناس على الاعتقاد بأنهم: غربيون، شرقيون، بيض، سود..."[1].

ظهرت في أفريقيا حركات مناهضة للحكم الاستعماري حتى في مراحله الأولى؛ حيث تكتلت النخبة المثقفة –التي تلقت تعليما أوروبيا– في بعض المستعمرات في شكل جماعات، حملت على عاتقها مهمة المطالبة بالحكم الذاتي، منذ أوائل القرن العشرين.

[1]– إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، المرجع السابق، الصفحة: 26.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

بيد أن صيحات المطالبة بالاستقلال لم تصبح حركة جماهيرية قوية، إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ نتيجة تنامي وتضخم الشعور بالوطنية في ظل الظروف القاهرة التي كانت المستعمرات الأفريقية تحيا تحت وطأتها، أضف إلى ذلك تصاعد موجة الحقد والكراهية التي ترسخت في وعي ولاوعي المستعمر(بفتح الميم) إزاء كل أشكال واستراتيجيات الاستعمار، فتعززت جهود النخبة المثقفة بجهود الشعب لتأسيس مقاومة وطنية مارست نشاطاتها عموما في ثلاث صور: القيام بإضرابات أو مسيرات منظمة، المقاومة المسلحة؛ التي تولاها ثوار وزعماء وطنيون، سواء أكانت هذه المقاومة محلية أم وطنية، المقاومة الفكرية؛ أو المقاومة بالقلم والفكر واللسان التي تبناها مثقفو المستعمرات، وقد اتخذت عدة أشكال، ومهما يكن من أمر فإن هدف هذه المقاومات جميعا هو نيل الحرية، والانعتاق من الاستبداد، والجور، والطغيان، والتبعية، والحفاظ على الهوية من التلاشي والذوبان نتيجة الضغوط المفروضة على شعوب المستعمرات من طرف الوافد الغربي .

وعلى صعيد المقاومة الثقافية، ظهرت في البلدان المستعمَرة حركة توجهت صوب فكفكة الاستعمار في العالم الثالث –والتي رافقها في أماكن متباينة كالهند والجزائر وأندونيسيا–وعي بضرورة هذه المقاومة الثقافية، كاستخدام المستعمَرين للغة المستعمِر، وإنتاجهم أدبا مغايرا بهذه اللغة؛ إذ يحاربونه بلغته التي لا يفقه سواها، غير أن الكثير من البلدان التي استقلت عانت فيما بعد من حروب أهلية، وكان لكثير من هذه المشكلات جذور استعمارية قديمة وحديثة في مجالات سياسية، واقتصادية، وثقافية.

لقد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية أدب ونقد جديدين، "منذ المرحلة العظيمة لفكفكة الاستعمار وللمرة الأولى، يصبح الأفارقة والآسياويون خلاقون لآدابهم وتواريخهم الخاصة بعدما كانوا دائما موضوعا لعلم الانسان الغربي، وللسرديات

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

الغربية، والنظريات التاريخية والتكهنات اللغوية الغربية، والدليل السلبي على شتى أنواع الأفكار حول الشعوب غير الأوروبية والأقل تطورا والتي ظلت جواهرها ثابتة رغم التاريخ"[1]. فكان من الطبيعي أن ترتبط مرحلة التحرر الوطني في أفريقيا، بتأكيد الثقافة الوطنية وترسيخها والإعلاء من شأنها، في مواجهة محاولة طمس وتشويه الهوية المرافقة للسيطرة الاستعمارية، التي لا تعترف بالمسار التاريخي للشعب المستعمَر، بإيقاف تطور قواه الإنتاجية في حين أن ثقافته التي تعكس واقعه المادي والفكري، هي ثمرة تاريخه بقدر ماهي عامل يحدد مسار هذا التاريخ[2].

ومن هنا يمكننا أن نطرح تساؤلا: **هل سيعاني الأدب الأفريقي من سلبيات التبعية للآخر/الغربي تجاه إبداعه الأدبي/الثقافي كما كان الشأن في المشرق العربي؟ أم سيتمكن المهمشون من استرجاع مكانة أدبهم، ومواكبة فضاء الإبداع العالمي بما يرسلونه من نصوص ثقافية، خاصة ونحن في عصر مجانية المعلومة عبر الشبكة العنكبوتية والسرعة الفائقة في انتشارها عبر المعمورة؟**

في كتابه "**نقد ثقافي أم حداثة سلفية؟**" يحاول الناقد المغربي "**سعيد علوش**" أنيحددموقع الأدب الأفريقي في خارطة النقد ما بعد الحداثي، ويحلل ثنائية الأدب الأفريقي/أدب الأقليات، لاسيما بعد تحرّر أغلب دول أفريقيا، ومعايشتها لمرحلة ما بعد الاستعمار، ويرى الناقد نفسه أنه ليس من العجيب أن يبرز الصراع السياسي خلفية فكرية في العديد من مقاربات المثقفين الأفارقة، وهم يقتفون أثر أسطورة الأدبي في عالمهم، أم يحاولون تصحيحها للعالم الغربي، الذي لا ينظر لها إلا نظرة انحطاط واحتقار

[1]– إدوارد سعيد: الثقافة والإمريالية: المرجع السابق، الصفحة: 11.

[2]– رضوى عاشور: التابع ينهض (الرواية في غرب إفريقيا)، دار الشروق، الطبعة الأولى، السنة: 2016، الصفحة: 07.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

ودونية، ولا عجب في ذلك؛ إذ يعتبر الغربي نفسه سيد المركزية الواهية على الدوام...ويعتبر ما هو دخيل عنه هامشا لا يعتدّ به على الإطلاق، ويصنّف الآداب البدائية في خانة الأنتروبولوجيا الثقافية، إذ لم تكن الأثنوغرافية القبلية إلا ضمن شعب الآداب العالمية وهو الأمر الذي أدركه الكاتب النيجيري "**سوينكا**" أستاذ الأدب المقارن، في مؤلفه المعروف "**الأسطورة والأدب والعالم الأفريقي**"، في محاضراته عن الأدب الأفريقي التي ألقاها في "**جامعة كمبريدج**" أوائل السبعينات؛ ذلك أن طروحاته وآراءه في هذا المجال أدرجت في مقياس الأنثروبولوجيا الاجتماعية، لأن قسم الأدب الإنجليزي لم يكن مقتنعا بكينونة الأدب الأفريقي، فقد تم تصنيف الثقافة الأفريقية بطريقة لا تخلو من نظرة عنصرية تنظر لهذا الأدب –فيما هو جزء من الثقافة الأفريقية– نظرة دونية، فقد امتدت العنصرية أبيض/أسود حتى إلى مظاهر وتجليات الثقافة، بأمارة عدم الاعتراف بوجود أدب أفريقي وتصنيفه في خانة الأنثروبولوجيا الاجتماعية . هذا النزوع المسيّس في حقيقة الأمر غير بريئ من استمرار محاولة السياسة الاستدمارية في طمس كينونة الإنسان الأسود، وخنق صوته ووأد بنات أفكاره، وقد أدرك "**سوينكا**" تماما هذا النظام التصنيفي، ويذكر أن العديد من الجامعات الأفريقية وجدت صعوبة في إيجاد مكان للأدب الأفريقي، حيث أنها أُنشئت على نمط الجامعات الأوروبية ويعمل بها أساتذة تم تدريبهم في أوروبا.

لعلّ من أهم الانتقادات التي وجهت لـــ "**سوينكا**" فيما يتعلق بتهميش الأدب الأفريقي، يرتبط بالنزعة الأنثروبولوجية الشائعة في أغلب الدراسات الأوروبية عن أفريقيا وهو تقريبا نفس التوجه الذي سارت عليه الدراسات التي جرت حول لغات السكان الأصليين لأمريكا وثقافاتهم. وهذه خطوة مهمة في الاهتمام بالإبداع الأفريقي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

عامة، ولكن ما يؤخذ عليه هو أنه ركّز على الأنثروبولوجيا الاجتماعية على حساب الأدب.

ومهما يكن من ملاحظات سلبية، إلا أن الإيجابي يوجد مكانه لهذه الثقافة ضمن خططه الاستكشافية أو التعليلية، لوضعية منطقية كانت أم فلسفة جمالية، لأن النظرة الدونية والهامشية كانتا على الدوام مصاحبتين للمركزية الغربية.

فالناقد الثقافي لا يكتفي بالإدلاء بملاحظاته السلبية إزاء ماضي وحاضر ومستقبل واقع المستعمرات، بل يجب أن يساهم في تشييد بناء مضاد ومقاوم إيجابي للهويات في إطار التعدد والاختلافات المتاحة والممكنة (الكتابة المضادة). ومن هنا يظهر أن الدراسات الثقافية شبه عاجزة عن ملاحقة مجموعة من الظواهر والأحداث، لأن النقد الثقافي ينتقل من الظاهرة الأدبية إلى الحادثة الثقافية في المناهج الغربية، التي أوجدت صراعات حادة بين ثقافة (بيضاء، سوداء، صفراء). مع أن كل الثقافات تصب في كليات إنسانية، تظل نخبوية رافضة أو متوجسة خيفة من سلطاتها الخفية التي تفتح وعيا شقيا لمركزية جديدة غير معرّف بها.

وبعد الجهود التي قدّمها كل من "**نجوجي واثيونجو**" و"**تشيدى آموتا**"، فقد انتقلت هذه الدراسات من مرحلة المعارضة والعداء للتأثيرات والتقاليد والمناهج الأوروبية، إلى دراسات ذات مركز أفريقي، يتمّ فيها دراسة تأثير أوروبا على الأدب الأفريقي إلى جانب تأثيرات أخرى ربّما كانت أكثر أهمية، مثل استمرارية تراث اللغة الدارجة والتراث الشفهي[1]. فتصاعدُ الوعي بضرورة تهشيم المركزيات الأوروبية الاستبدادية، التي تقصي كل ما هو خارج عنها وتعدّه هامشا، كان فاعلا أساسيا في

[1]– سعيد علوش: نقد ثقافي أم حداثة سلفية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، سنة: 2007، الصفحة: 185–186.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

هذا التحول الاستراتيجي الواعي بالاحتفاء بالهامش ضد المركز، في إطار تشكل رؤية ثقافية معارضة لشموخ ونرجسية تلك المركزيات، التي سيطرت وأقصت ما سواها ردحا من الزمن.

يحاول أحد الأوغنديين أن يرسم مفهوما للأدب الأفريقي، حيث أكد أنّه: توجد العديد من الثقافات الأفريقية التي تشكل أنواعا مختلفة من الآداب ذات مجموعات متنوعة من الأساليب والمعاني والقيم...وكل من يريد تفسير أدب أفريقيا السوداء عليه أن يجادل أصحاب الآراء القطعية الذين يصرون على تفرد التقاليد والأعراف أو الجهود الأدبية ويقيدون الأديب بفلسفة خاصة أو موقف خاص. وعليه كان الحكم على الأدب الأفريقي بأنه أدب أولا ثم كان التأكيد على أفريقيته ثانيا. ويؤكد ذلك الروائي النيجيري "**شينوا أتشيبي**": لا يمكن أن نحشر الأدب الأفريقي في تعريف صغير محكم، لأنه في منظوره مجموعة من الوحدات المحكمة التي تشكل المجموع الكلي للآداب القومية والعرقية في أفريقيا[1].

فالأدب الأفريقي حسب هذا التصور هو أدب قبل كل شيء، أدب بكل ما تحمله الكلمة من معان خاصة لهذا الكيان المتفرد أولا، ومن ثمة تبقى مضامين ومواضيع وقضايا هذا الأدب الذي ينطوي على قدر من الحساسية، موضوعا خاصا يرتبط بإبستيمولوجية هذا الأدب ذاته، والتوجه الإيديولوجي لكتابه، باعتباره كلّا يحتوي كلّا آخر؛ إذ أن الأدب الأفريقي وحدة كاملة تشكل مجموعة من الوحدات القومية والعرقية والثقافية والإنسانوية والتاريخية...الأفريقية. ويظهر مفهوم الأدب الأفريقي عند "**نادين غورديمير**" ككتابة أفريقية بيضاء بقولها: "إن الأدب الأفريقي هو أدب كتبه –بأية لغة

[1]– علي شلش: الأدب الأفريقي، مجلة عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) الكويت، السنة: مارس1993، الصفحة: 16.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

كانت– الأفريقيون ذاتهم أو أي مجموعة أخرى بغض النظر عن لون بشرتهم، ولكنهم يشتركون معهم في أن تجربة أفريقيا دون غيرها من مناطق العالم، قد شكلتهم عقليا وروحيا، ولكي يكون الكاتب أفريقيا يتعيّن عليه أن ينظر إلى العالم من أفريقيا وليس أن ينظر إلى أفريقيا من العالم. فهؤلاء الأدباء الأفريقيون يقترحون وعيا، يكون مركزه أفريقيا ودراسته للأدب تبدأ بأفريقيا، وتعامل الآداب الأخرى طبقا لعلاقتها بهذا المركز الأفريقي، هذا النموذج للأدب المقارن يتناقض تناقضا واضحا مع النماذج القديمة ذات المركز الأوروبي التي رفضت مقارنة آدابها بالنصوص غير الأوروبية، بسبب ما ادعته من وجود اختلافات، لا يسهل تخطيها بالإضافة إلى عدم وجود مكانة واضحة لهذه الآداب على خارطة الآداب الغربية المعترف بها"[1].

والأدب الأفريقي حسب هذا التوجه لا يخضع لاعتبارات اللون والانتماء واللغة، بل جوهر تحديد أفريقية هذا الأدب من عدمها هو روحه والقضايا التي يحملها، والأهم في كل هذا أن تكون أفريقيا "المركز" بؤرة هذا الأدب وشغله الشاغل. هذا التوجه إن كان يذكر بشيء، فهو يحيل حتما إلى دستور المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، التي تعتبر الآداب الأوروبية آدابا موجبة وآداب المستعمرات آدابا سالبة، وتقصي من دائرة اهتمامها الدراسات التي تهتم بمقارنة هذه الآداب مع أدبها، لأنها **"آداب هامشية"**.

3– الكولونيالية وما بعد الكولونيالية:

تعرف جماعة **"بيل أشيكروفت"** ما بعد الكولونيالية على أنّها المجال الذي يبحث في آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات، وأن هذا المصطلح يستعمل

[1]– سوزان باسنيت: الأدب المقارن (مقدمة نقدية)، تر: أميرة حسن نويرة، القاهرة، طبعة سنة 1999، الصفحة: 83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

"ليشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا هذا، ويرجع هذا الاستخدام إلى استمرار هذا الانشغال طوال العملية التاريخية التي بدأت بالعدوان الإمبريالي الأوروبي[1].

يتحدد مفهوم ما بعد الكولونيالية حسب هذه الجماعة، بوصفها مجالا يأخذ بعين الاعتبار التنقيب والبحث في كل الثقافات التي تعرضت للعملية الإمبريالية، وتأثرت بها بشكل أو بآخر منذ اللحظة الأولى، ويستمر هذا التأثير ويمتد حتى إلى الفترات الزمنية اللاحقة لتاريخ تحرر هذه الشعوب، على أن هذا التعريف لا يخلو من القصور، ويتجلى وجه القصور فيه في ربط أصحاب هذا التعريف العملية الإمبريالية بأوروبا فقط، إذ نسوا– أو تناسوا– وجود بلدان استعمارية أخرى ساهمت في العملية الإمبريالية، فليس الاستعمار إذا حكرا على أوروبا فقط، وهي النقطة نفسها التي تفطّن لها الباحث الجزائري في هذا المجال "**وحيد بن بوعزيز**" وأدركها في كتابه "**جدل الثقافة**" إذ يقول في هذا الصدد: "يتجلى لنا هذا الطابع البيداغوجي في هذه النزعة الاختزالية Réductionnisme داخل القول؛ أولا نجد هناك قصورا مفرطا حينما حاول مؤلفو هذا الكتاب ربط الاستعمار فقط بما هو أوروبي، متناسين في ذلك بلدان أخرى، ساهمت في العملية الاستعمارية، يمكن مقاربتها بمقولات نقدية تنسيبية نوعا ما، مستمدة من حقل هذه الدراسات"[2]. وتؤكد ذلك الناقدة" **آنيا لومبا**" بأنّ الخطاب الاستعماري ليس مجرد مصطلح جديد وهمي للاستعمار، إنه يدل بالأحرى على طريقة

[1]– بيل أشيكروفت: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة)، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، السنة: مارس 2006، الصفحة 16.

[2]– وحيد بن بوعزيز: جدل الثقافة مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، السنة 2018، الصفحة: 15.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

جديدة في التفكير تشترك فيها عمليات ثقافية فكرية، واقتصادية سياسية معا في إدانة وتعرية الاستعمار"[1].

ترمي هذه الاستراتيجية إلى خلق فضاءات أخرى جديدة للدراسات الكولونيالية، تهدف إلى فضح سياسات الإقصاء والقمع والاضطهاد الاستعماري، وذلك عن طريق تحري العلاقات القائمة بين المعرفة والسلطة وكافة المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية، وفي هذا المقام تتبادر إلى الذهن الاستراتيجيات الفوكوية (الحفريات) التي بين صاحبها عبرها كيف أن السلطة تحاول الاستحواذ على المعرفة لكي تتحقق لها الهيمنة. ويؤكد "**سعيد علوش**" أنّ الأدب المسمى بالأدب ما بعد الكولونيالي، أسهم في إيجاد تراكمات معرفية وأدبية وثقافية، تعيد الاعتبار للشفوي، والنسوي والأقليات، بفضل الانتقال من مراحل التلقي السلبي إلى الإيجابي، الذي يمنح دورا للهويات الأخرى المغايرة والطامحة إلى الاختلاف البنّاء، لقد أوجدت هذه المغايرة في الأدب العام والمقارن صداها المعبر عن استجابات متفاوتة الخطورة، تراوح بين مقولة "أهل مكّة أدرى بشعابها"، وتبني نظرة الآخر، كضرورة معرفية ضمن مرايا متجاورة ومتحاورة ثقافيا وحضاريا، بحثا عن كليات إنسانية كهدف نهائي للمغامرة الثقافية، ذلك أن تأكيد الذات الأوروبية أو الأفريقية اتسم في الحالتين بالعدوانية في كثير من الأحيان، ومثال ذلك أن بعض الطروحات ذهبت إلى أنّ الأفريقيين فقط هم المنطوون بدراسة الأدب الأفريقي دون غيرهم، ولو تم دراسة النصوص المكتوبة خارج ثقافتهم، كما ذهبت إلى ذلك الباحثة "**سوزان باسنيت**" في مؤلفها "**الأدب المقارن**"[2].

---

[1]– آنيا لومبا: (في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية)، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، الطبعة الأولى، السنة: 2007، الصفحة: 64.

[2]– سوزان باسنيت: الأدب المقارن، المرجع السابق، صفحة: 85–86.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

لقد انتهى عصر الأعمال العظيمة وأمهات الأعمال، وعلى الباحثين والمفكرين وكذا النقاد والدارسون مواجهة الكم الهائل للإنتاجات التقنية، وملاحقة صورها المراوحة بين الحسي الإيمائي والسمعي والبصري، نظرا لتداخل وسائل التعبير المختلفة في الصناعة الثقافية التي امتدّت إلى كل الفضاءات والأعمار والفئات والجنسيات لتوجد لها مكانا في المؤسسات والمجتمعات المدنية، ضمن عولمة ثقافية معلبة، تدعي نشر المعرفة، وإن كان ما يسيطر عليها في العمق هو مجتمعات الإعدام والقولبة والإخضاع لسوق شعرية إمبريالية لها مرجعيات إيديولوجية تأتي في قالب مماحقة لما يطلق عليه مصطلح "**الهامش**".

إنّ كل هذه الظّروف استوجبت ظهور نظرية ما بعد كولونيالية، لرصد الظواهر المستجدة على الأدب، بهدف الإلمام بإشكاليات جديدة في التخييل والمغامرة، من منظور مقارنة الدراسات الثقافية، كنظرة نحو الشمولي والكلي، وفي إعادة الاعتبار للظاهرة/الحادثة في ضوء تراكمات ما بعد الكولونيالية للآداب والهويات الجديدة، تلك التي أخذت تبحث بها عن مكان تحت عباءة المقارنة...

إن ظهور مصطلح "ما بعد الكولونيالية" على صعيد المسرح النقدي يعد ربّما أهم حدث في الأدب المقارن في القرن العشرين، ونلاحظ أنه حالما تقبلنا المصطلح، فإنّنا نجد أن الوحدات الجغرافية تغير مواقعها، وتظهر اعتبارات جديدة، ولو تأملنا مليا لوجدنا أن الصراع الطويل لأدباء أمريكا الشمالية والجنوبية في القرنين الثامن والتاسع عشر، كان بغية خلق آدابهم الخاصة بهم، وقياسا على ذلك يمكن أن تصبح قضية ماهية "الأدب الخالص بالمرء ذاته" قابلة للمناقشة.

4–أدب ما بعد الكولونيالية:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

إنّ النظرية الأدبية لما بعد الاستعمار قد بدأت جهاد الحاضر من أجل الخروج من الماضي، وبناء مستقبل يرفع من شأن هذه الدول التي طال صمتها كثيرا تحت وطأة الإمبريالية الغربية، فكل الأعمال التي أُنتجت واهتمت بثقافات ما بعد الاستعمار، تمثل نقلة مهمة للشعوب المستعمَرة، وإن عالم ما بعد الاستعمار هو عالم يتحول فيه اللقاء الثقافي المدمر إلى قبول لوجود الاختلافات، على أساس المساواة، ولقد بدأ واضعوا النظريات الأدبية ومؤرخو الثقافة في إدراك أن التفاعلات الثقافية هي نقطة نهاية ممكنة في تاريخ يبدو لا نهائيا من الانتصار والتدمير، ولعل نظرية ما بعد الاستعمار تستمدّ قوّتها من مرجعيتها المقارنة، ومن النظرة المختلطة والشمولية إلى العالم الحديث التي تنطوي عليها.

والملاحظ أن فكرة ما بعد الاستعمار تختلف اختلافا كبيرا عن مناهضة الاستعمار، حيث أنّ ردود الفعل للاستعمار كانت تفصح عن نفسها بطرائق شتّى، ولكنها كانت دائما تفترض فكرة التضاد الثنائي، وتتمثّل نقطة الاختلاف التي تقدّمها دراسات ما بعد الاستعمار في أنه على الرّغم من أنها تتحدّى هيمنة الثقافات الاستعمارية، إلا أنها تدرك تعددية الاحتكاك بين المستعمرين والخاضعين لهم، ومن أهم التطورات التي أدّت إلى تعميق مفهوم نظرية ما بعد الاستعمار، جموع الآداب التي ظهرت منذ الخمسينيات من هذا القرن في المجتمعات المختلطة عرقيا، والتي تتصف بثنائية أو تعددية لغوية.

ويضيف "**سعيد علوش**" أن الإمبراطوريات الفرانكفونية والأنجلوفونية ملاحق للآداب المركزية في الهوامش الأفريقية والآسيوية، كما أوجدت الآسبانوفونية في أمريكا اللاتينية امتدادات غير هينة، تخوض حروبها فوق سهام واقعية سحرية لمواجهة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

الإمبراطوريات وهي تصنع خريطتها الثقافية للعالم على مقاسها، بل وتتدخل لحماية امتداداتها في الثقافات الوطنية لتكييفها وتدجينها.

وإذا كان هذا الوجه الخفي لعملة ثقافة ما بعد الاستعمار، فإن الوجه المكشوف يعيد الاعتبار إلى الآداب الأخرى التي اختارت لغة من لغات الإمبراطورية الثقافية للتعبير عن (زنجيتها، ومغاربيتها، قبائليتها، لاتينيتها)، وهذا نوع من أنواع المقاومة الثقافية/الأدبية المتمثلة في استخدام المستعمَر للغة المستعمِر والدفاع عن تراثه وكينونته بلغة عدوّه، ولا شك أنه عندما تفرض ثقافة ما مركزيتها على الهويات الثقافية الأخرى، يحدث نوعا من السجال والتناقض الذي يشتغل على أساس قدرة كل ثقافة مركزية على تطويع أو استعباد الثقافة الفرعية، عاملة على تذويبها في فلك الثقافة الكونية والتي تدعي أنها من خلالها تتجاوز كل الطبقية والقوميات والطوائف، ولكن نجد أن الثقافة الفرعية التي تتقوقع داخل الذات بوصفها ثقافة هامشية، تفرز نوعا من الكراهية والعداوة ضد الثقافة المهيمنة التي تحاول أن تقصيها وأن تذيبها، وأن خطاب الكراهية كان هاجسا تاريخيا ارتبط بظروف اجتماعية وتاريخية تدافع من خلاله كل جماعة عن وجودها، عن طريق تشكيل مدونات تستدعي في ذاكرتها أجواء ومناسبات كثيرة تنتج خطاب كراهية خاصا بها.

ولعل أزمة العزلة الثقافية للشعوب القديمة فضلا عن محدودية الكتابة التي كانت آلة تواصل، تفعل فعلها مع الشفافية في إنتاج الثقافة المركزية، التي تهمش ثقافة الآخر أو الخطاب المضاد لها، في حاجة سلطوية تنتظم من خلالها مراكز القوة الثقافية في تدجين

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

وتهميش الثقافة والأفراد التي لا تدور في فلكها الثقافي فهو: في الأصل تهميش للأفراد والطبقات التي حاولت عبر التاريخ فرض وجودها عن طريق الثقافة والكتابة[1].

يعتبر أدب ما بعد الاستعمار المقارن، رحلة لاستكشاف الذات، نحو إدراك المسؤولية والشعور بالذنب والاشتراك في الجرم، والتواطؤ في عملية خلق متاهة عالم الأدب الحديث ولم تعد رحلات البحث الأوروبية تنطلق من مركزياتهم، لأن المراكز والهوامش قد أعيد تعريفها. فهذا هو الحال بالنسبة "للرواية الإنجليزية التي كان سيقدر لها أن تتهاوى وتضمحل إلى الأبد في درك من ضيق الأفق الإقليمي، بيد أنها أعيدت إلى الحياة مرّة أخرى بواسطة الروائيين الذين يستخدمون الانجليزية في كتاباتهم، والذين لم تطأ أقدامهم أرض بريطانيا"[2]. يعلّق "**سعيد علوش**" على هذه الفكرة من خلال السؤال الآتي: فهل حقا وجدت بريطانيا في آسيا من يرفد أدبها وثقافتها منذ تسليط الأضواء على "**سلمان رشدي**" وغيره لتأخذ اللائحة في الانفتاح بأرصدة المتنجلزين والمتفرنسين الجدد، وقودا للدراسات الثقافية؟

فهل كانت كتابة "**فرانز فانون**" (عن **الجلد الأسود والقناع الأبيض**) إثارة للتجربة (السوداء/ البيضاء)، (الإيجابية/السلبية) لما بعد الاستعمار بدل السقوط في عماد الثقوب السوداء؟

ستظلّ إذن: الثقوب السوداء موضوع النقد الثقافي لمدة طويلة، لما تثيره من نقاشات تتعدّى هذا النقد الحضاري، الذي اتخذ قناع محاور الشر/الخير في الحروب الإيديولوجية القاعدية والخارقة لها، لتجد النظرية الثقافية لـــ: ما بعد، صعوبة في الإلمام

[1]– محمد خليف خضر الحيان: السلطة والهامش، دار حامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السنة 2016، الصفحة: 71.

[2]– سوزان باسنيت: الأدب المقارن، المرجع السابق، الصفحة: 102.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

بموضوعها (الأنتروبولوجي /الإثني/ المتداخل الاختصاصات)، فقد جربت كل (مكر/حيل) من أجل الخروج من (التيه المقارن).

إنتجانسية الإمبريالية الثقافية قد أسهمت فيزوال الاختلاف بوسائل شتى (تدميرية إصلاحية)، (عنف/مصالحة) وأشكال سمعية بصرية وشفوية، وجدت فيها الدرامات والرقصات والمهرجانات الكرنفالية في أمريكا اللاتينية والموسيقى الشعبية، مثلا: – الكَناوية في المغرب والجزائر وبعض دول الساحل الأفريقي– صداها لإثارة معتقدات وحكايات جعلت من جامع القناوي في المغرب معلما دوليا في نظر السياحة العالمية، حيث تبنتها اليونسكو للاعتراف بثقافة بدوية فلاحية لتكرار ولفظ ممسوخ ثقافي، تبرز فيه الطبقة العامة كردّ فعل على الثقافة التصنيعية.

ومما لا شك فيه أن الأدب الشفهي يحتل مساحة كبيرة على خريطة التعبير الأدبي في أفريقيا، وهو الأدب الذي لا يعرف مؤلّفا محددا، وتتناقله الألسن عبر الأجيال وفي أماكن مختلفة، وهو كما عده البعض ركيزة للأدب الحديث المكتوب، الحال هنا أشبه بالتواتر الذي عرفه الأدب الإغريقي في كونه ركيزة للأدب الروماني، وبدورهما ركيزة للأدب الأوروبي الحديث، ولا شك أنه من أهم المؤثرات في الأدب المكتوب – خاصة الشعر– الذي نجد له سبقا ومكانة بارزة في الآداب العالمية –المكتوبة منها وغير المكتوبة على السواء–، هذا الشعر تواتر وفق النمط المدون باللغة الأصلية، أو لغة السّيد، أو النمط الفولكلوري غير معروف المؤلف، والذي لا يستطيع تحديد بداياته يدور حول المدائح التي تشمل الآلهة والبشر، والحيوان، والنبات، وأغاني الصيد، وشعر الرقى، والتعاويذ، وشعر الحرب والقتال أما النمط الأخير الشعبي معروف المؤلف، أيضا يصعب علينا تحديد بداياته، لكن من السهل العثور على الشعراء بين القبائل والجماعات. فالشاعر لسان قومه يعبر عن قيمه وثقافته ويلوك ملاحمه البطولية، بل

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

أصبح في عهد السيطرة الاستعمارية مناضلا وطنيا يستخدم شعره في تذكية نار النضال من أجل التحرر[1].

وعلى الرّغم من أن الثقافة الشعبية تقدم نفسها كثقافة جماهيرية نوستالجية الثوابت الماضوية، فهي تعبّر عن أزمة مأساوية، تضع ملاحظتها في موقع الفرجة، التي لا تحمل مهاما تحريرية ولا طوباوية، لأنها لا تعلن عن تكتيكات ولا استراتيجيات للاستيلاء على السلطة رغم ما تحمله من كم هائل من التدمير وشكاوي الإبادة والحظ العاثر، الذي يجد في الفولكلور والثقافة الجماهيرية متنفسا يضعها في متحف شبيه بالمأثور، الذي يصوغ الروح الجمعية. من ثم كان للفولكلور دوره في إدماج جزئي للريفيين في أمريكا اللاتينية، وللمواسم والزوايا وظائف التجمعات والتحكم في لعبها وجذباتها في المغرب، مما يجعل من احتفالات المواسم والفولكلور بنوكا لتخزين الأصالات بشكل آمن، وهي بدائل أخرى لهياكل السلطة... وإذا كان الفولكلور يعين حفظ الذاكرة الجمعية، في مواجهة تدمير وسائل الاتصال الجماهيرية فيمكن القول إن البرازيل تعتبره بديلا حاسما للثقافة الرأسمالية، وهو رأي طوباوي لاحتفالات "**سامبا ساو باولو**"، ... كما طوّرت البيرو الموسيقى الأندينية جاعلة من الفولكلور جزءًا من مجموعة ظروف تاريخية، حتى وأن الأرجنتين يجدونه مشحونا بنزعة رجعية، لكن هذا الفولكلور يظل البديل الطوباوي لمواجهة الجوانب المفسدة في مشروع التحديث البرازيلي لتنتقل قوّة الثقافة المحلية ما بين دول أمريكا اللاتينية، إلى التجسد في معرض دائم لفولكلورها في ساو باولو سنة 1984، كأفضل معرض في العالم لإبراز الجمالية

[1]– محمد محمود: الأدب الأفريقي، دار مجد للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 2008، الصفحة: 07.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

وانطباع تشابه منتجات مناطق مختلفة تحول الشعبي إلى أحادي بديلا عن تعدده، عبر انتقائية الاختلاف.

ومن ثم يبدو أن "**ثيودور أدورنو**" و"**ماكس هوركايمر**" عندما يبديان رأيهما في صناعة الثقافة، لا يخفيانهما في عامل إخضاع الثقافة للسوق الرأسمالية، كإخضاع لكامل أشكال الثقافة إلى مجرد منتجات نمطية، تقلل من قدرة المستهلك على التفكير بشكل نقدي، أو اكتساب خبرات التجاوز، حيث تغيب أصالة الحقيقي، لصالح الاستنساخ في دناءة الانحدار الثقافي، الذي يجعل من هذا الانحدار رأيا سلبيا يستعصي معه اختراق الثقافة الحقيقية. ومع ذلك تظلّ ثقافة الفولكلور إمكانية لإعطاء الثقافات الشعبية تماسكها الأنطولوجي المعلمن للذاكرة الشعبية، والقائم على دمج إجباري لها في المدوّنة الكتابية التي يقوم الإعلام السمعي– البصري بالتقاط طرقها العديدة والمتناقضة، ودمجها في التذكر والتوثيق والتفسير داخل تنميطات مسبقة، ما دامت غير منفصلة عن علاقات قوى استبصارها، لاعتبارها رؤية معطاة، بل وسيلة وأداة في يد السلطة، التي ترى فيها تعبيرا عن برنامجها الإدماجي الولائي للصراعات، التي توجد لها خرائط ليلية للفرض والاستيعاب، مادام الحقل الشفوي والشعبي ليسا حقلين مرئيين بما فيه الكفاية، وما دامت فكرة الجمهور والثقافة الجماهيرية ابتداع يميني للقرن التاسع عشر، وإن كان اليسار قد استفاد منها أكثر من مبدعيها، الذين أظهروا غطرسة إمبريالية، وخرفا ماركسيا في الشعبي على علامات الثقافة، وقدرة على البقاء بمدى القدرة على تخزين المعلومات وكذلك قدرتها على الامتثال التكتيكي والمراوغة التداولية كشياطين سعيدة...

وهكذا نجد من يدعو إلى "**بابا عيشور**"، بدل "**البابا نويل**"، وإلى المزيد من المواسم الكرنفالية بديلا عن العمل السياسي، أو بتحويله إلى ثقافة سياسية من جمعيات

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

السهول والهضاب والجبال، ومن مزروقة إلى طانطان ومواسم الأولياء والصالحين جلبا للبركة، ... إحقاقا لتضخمات ذاته[1]. "ذلك أن بوادر التضخم الذاتي والمثالي لأهمية الثقافي ودور المثقف، بعيدا أو حتى بديلا عن العمل السياسي، وهي حالة مرضية لا حاجة لتشخيصها ولا للوقوف والتفصيل في الأضرار التي تنجم عنها ضرورة في حال انتشارها"[2].

وكنموذج لانعكاس هذه التوجهات نوقشت رسائل جامعية حول "**العيطة**" و"**القناوة**" كبلاغة للجسد واللون الموسيقي، حيث يكشف الاهتمام القناوي مثلا: عن نزعة نحو التحرر الكلّي من ممالك الكتابة والرمز، للتعامل مع جمهورية العلامات في شجب غريزي للغة، يتبال المكر مع الخطاب الرسمي الذي يجعل أداته للترويج السياحي في مقابل الترويج المعيشي للقناوة (معلم، فنان، ...). ويظهر أن إقرار حق معرفة مستقلة، تشحذ الحساسيات الشعبية للاختلاف، وتدعم القدرة على تحمل ما لا يقبل المقايسة في الخطابات القناوية الفقيرة رمزيا والغنية موسيقيا وإيقاعيا وكإثارة للاستجابة الحسية إلى لغة الجسد والجذبة، الموحيان بأصالة النمط الجسدي كثقافة مضادة في الظاهر، لكنها توحي بأزمة مشروعية، وأزمة مجتمع يبحث عن تواصل يعاني من التشويش على أسطورة تحرره كما يعاني من عماء استنهاض تأمّله، نظرا لطبيعة احتفاء القناوة بانفصامه الذاتي المتروع المركزية، حتى وهو يضخم خصائصه الشكلية، ويبالغ في طرائق استهلاكه لماضيه المأساوي، تذكيرا بمواجع الإقصاء الطبقي، عبر القرون الذي زكى الأخلاق الفصامية، التي تجعل من القناوة ثورية بل مجرد طريقة إعلام على سطح

[1]– سعيد علوش: نقد ثقافي أم حداثة سلفية، المرجع السابق، الصفحة: 193–194.

[2]– عبد الصمد بلكبير: في الثقافة والثقافة الشعبية، مجلة أنوار، السنة: جانفي1987، الصفحة: 301.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

الفرجة، فرجة تقرّرها الجهات الرسمية، لا يهمها في شيء، صراع أو نزاع أو آلام البطولة القناوية كبطولة مهزومين عبر التاريخ، يفتقدون لغة القول، ويعوّضونها بحركات الجسد الراقص حد الجنون والإغماء، لا تمردا على المجالات الكثيفة للغة، ولكن تماديا منهم في أمية تسلك دروب تيه ميتافيزيقي، تستعيده المهرجانات القناوية كضرب من الاحتفاء بالميتافيزيقا التنويرية، التي تقيم لها ورشات بأشكال تتوخى الحفاظ على مخزون ألبسة وأقنعة وحركات بهلوانية في مساحات تستجيب لفرط شعور عابر، يفاخر بالشبيه الأفرو–أمريكي والأمريكي مغالاة في توظيف سمة القناوي كمتخيل شعبي، تتجوّل نقلاته في الروائي والتشكيلي والسمعي البصري، الذي يجد في ثقافة الهامش متسعه الممكن، جمعا وتوثيقا لمخيال طقوسي، يدخل في شبه حوار مع وسائل تعبير مركبة تفترض استبعاد الرؤية السطحية بالانخراط في فولكلورية تحيل على تاريخ سحيق لثقافة سوداء، وجدت فضاءها في القرى النائية وبعض المدن الساحلية التي انفتحت على إيقاع محروم من اللغة، لا يميّز بين الذات وبقية الذوات الأخرى في تشكيل بلاغة جسد قناوي، يوهم بنزعة مضادة للتمركز اللفظي وحضارة المكتوب تلك التي جعلت من "الريبرتوار" repertoire القناوي وسيلة تدوين للأغاني الموزعة على المحلات والمقاطع، يطلق عليها ملوك أو أرواح امتلاكية.

كما يتمّ وصف الآلات الموسيقية القناوية كآلات أسطورية، تبرز فكرة الشتات نقيضا متشعبا ينسب إلى جوهر عرقي، يتوخّى التركيز على الموسيقى والأداء في الثقافة السوداء نتيجة لاضطهادها، وهو ما يبرر وحشية رقصاتها ذات الحضور الروحاني التملكي والاستعراضي الذي يبرز من خلاله الراقص القناوي قدراته التعبيرية الجسدية، في تشكيل يوحي بجغرافية وتاريخ يساهم في إنتاج أنساق معرفية، حيث يشتغل الجسد كما لو كان يخلق النص في زمن تلفّظه، لكي لا يحتفظ منه بغير هيكل ضروري، لبناء

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

وضعية الجسد الراقص الصادق المؤهل الواقعي، الأكثر حرية، حتى وأن هذا الاستجداد بالجسد لا يحرره، رغم الاعتقاد في طقوسه الليلية ومحلات أولاد البامبارا، وهم يرسمون دوائر كوريغرافية إشارية تستعيد الهوية المفتقدة، لتسديد دين عاطفي للأسلاف بالحنين إلى جذورهم، تحت وقع جسد يحيل على دراميات أفريقية لمأتم (البوبو) وبوركينا فاسو في تقليد لرقصات وأناشيد ذات أحداث تنكر بالمفقودين وعاداتهم وإيماءاتهم، مضحكة كانت أو مشينة، كما لو كانت تعترض وتحتج على ماض لا يريد أن يموت . من ثمة كانت الجذبة سفر طقوس، يحين الزمن في الأفعال والحركات الجسدية، التي تبدأ بالهزل وتنتهي بالإغماء، طلبا لنوع من التطهير[1].

كما أنّها تقام لإشباع بعض الحاجات الروحية والعاطفية للمؤدين، أو لتعزيز الروابط الاجتماعية، أو لبعض أغراض التربية المجتمعية والأخلاقية، أو كدليل على الاحترام والطاعة، أو دليل على انتماء الفرد، أو كمؤشر لبداية بعض الأحداث المعلقة بتمجيد المحاربين القدامى.

5 – الخاتمـــة:

عطفا على ما سبق، فلقد اعتبرت هذه الطقوس – بجميع أنواعها – أحد سمات كل المجتمعات الإنسانية سواء في الماضي أو الحاضر، فلا تقتصر الطقوس والمراسم على الأنواع المختلفة من طقوس العبادة، أو الأسرار المقدسة في بعض الأديان أو الطوائف فقط، ولكنها تمتد أيضًا لتشمل طقوس العبور في بعض المجتمعات وطقوس الكفارة، وطقوس التطهير، لذا يجب إعادة النظر في مسار رحلتها الطويلة عبر الصحراء، سعياً لإيجاد خصوصيتها التي يمكن العمل على إثرائها وتعزيز وجودها. فقبول وجود هذا

[1]– سعيد علوش: نقد ثقافي أم حداثة سلفية، المرجع السابق، الصفحة: 198–199.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

النوع ينطوي على اعتراف بالثقافة الأفريقية، وظاهرة الرق التي حدثت في الماضي مع جميع ما تحيط به من أمور تعتبر من المحرمات التي لا يمكن الخوض فيها.

قائمة المراجع:

– إدوارد سعيد: الثقافـــة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 2004.

– رضوى عاشور: التابع ينهض (الرواية في غرب إفريقيا)، دار الشروق، الطبعة الأولى، السنة: 2016.

– سعيد علوش: نقد ثقافي أم حداثة سلفية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، سنة: 2007.

– سوزان باسنيت: الأدب المقارن (مقدمة نقدية)، تر: أميرة حسن نويرة، القاهرة، طبعة سنة 1999.

– بيل أشيكروفت: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة)، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمـــة، بيروت، الطبعة الأولى، السنة: مارس 2006.

– وحيد بن بوعزيز: جدل الثقافة مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، السنة 2018.

– آنيا لومبا: (في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية)، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، الطبعة الأولى، السنة: 2007.

– محمد خليف خضر الحيان: السلطة والهامش، دار حامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السنة 2016.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 03 السنة: 2020 الصفحة: 907–932 تاريخ النشر: 25–03–2021

– محمد محمود: الأدب الأفريقي، دار مجد للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 2008.

– علي شلش: الأدب الإفريقي، مجلة عـــالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) الكويت، السنة: مارس1993.

– عبد الصمد بلكبير: في الثقافة والثقافة الشعبية، مجلة أنوار، السنة: جانفي1987.